الفصل الخامس

عبد الله الأول ابن سعود

obeikandl.com

صفحة بيضاء

obeikandl.com

عبد الله الأول ابن سعود

في بداية عام ١٨١٤ وبعد فشل الحملة التي قام بها «أحمد طوسون» لإخضاع واحة «تربة» خلال فصل شتاء ذلك العام، كان «محمد علي باشا» شخصياً يشرف على عمليات الهدف منها استقرار الأوضاع في مناطق الحجاز وفي مناطق أخرى على ساحل البحر الأحمر.

قامت قوات تركية مساندة نقلت من مصر عبد البحر الأحمر بالاستيلاء على ميناء «القنفذة» الواقع جنوب «جدة»، وقام «طامي بن شعيب» زعيم قبائل عسير بمهاجمة المعسكر المصري وأجبر القوات القادمة من مصر على الفرار والعودة إلى قواربها. تمكن الناجون منهم من التوجه إلى «جدة» تاركين كل مستلزمات معسكرهم غنيمة في أيدي العرب. كلف «طوسون» في تلك الأثناء بقيادة حامية كانت في منطقة الطائف ليشرف على المناطق الصحراوية بين «الطائف» و «تربة». وفضل الشريف «راجح» الانضمام إلى القوات السعودية في «تربة» على أن يثق بتملق الوالي التركي ممثل الصدر الأعظم في «مصر» الذي فكر في استخدام نفوذه لصرف أنظار القبائل عن الهدف الرئيسي لعدوهم.

والأمر الآخر المشابه لهذا الحدث هو أن الشريف «يحيى بن سرور» غادر مكة تحت ذريعة مهاجمة القبائل المعادية للمصريين، وتمكن بتلك الذريعة من الهرب والوصول إلى مناطق «تهامة عسير».

إن ما أحدث تغييراً مفاجئاً في هزيمة «تربة» كانت المقاومة الناجحة التي أبداها مقاتلو قبيلة «حرب» في شهر كانون الثاني بمنطقة «الحناكية» ضد

الهجموم الذي شنته قوات من «القصيم» و «حائل». والجدير بالذكر أن تلك القبيلة كانت مقربة من العثمانيين. لكن حدثت في الشهر نفسه موقعة دارت بالقرب من «سفينة» وفيها تمكنت قوات الأمير «عبد الله بن سعود» من إلحاق هزيمة نكراء بأبناء قبيلة حرب. كانت تلك الموقعة والعملية أكثر من مجرد غزوة من النوع التقليدي إذ كان هدفها وبدون شك تحذير البدو من التعاون مع قوات العدو. لم يغرى ذلك الانتصار «عبد الله» للبقاء في المناطق التي تحتلها القوات المعادية، فتوجه بقواته عائداً إلى ديرته وعند وصوله إلى آبار «خانوقة» بالقرب من «الدوادمي» وصلته أخبار وفاة والده.

أصبحت الآن مسؤولية الدفاع عن أرض أجداده ضد العدو القوي والعنيد ملقاة على عاتقه تحمل تلك المسؤولية خلال فترة حكمه التي لم يقدر لها أن تدوم لفترة طويلة لكنها كانت مملوءة بالقلاقل والمحن. ودلت الأعمال التي قام بها على أنه لم تكن لديه النية في ترك المبادرة كلياً في أيدي أعدائه.

على أية حال تابع «عبد الله» المسير بقواته باتجاه الدرعية، وقبل الوصول إلى هناك ليستمع إلى قسم الولاء لحكمه وله شخصياً، أمر زعيم عتيبة «غضاب» بترك الحملة والتوجه إلى «تربة» ليقود كافة التشكيلات العسكرية العاملة هناك، إذ أصبحت «تربة» الآن منطقة أساسية ورئيسية في الدفاع عن حكمه.

وفي شهر أيلول كان «عبد الله» شخصياً على رأس قوة كبيرة من «نجد». توجه بها إلى «الرس» وأقام هناك مقراً رئيسياً لقوته وأغار على مناطق مختلفة لقبيلة المطير وهي قبيلة اتخذت موقفاً حيادياً تجاه القوات المصرية. وأما في شهر تشرين الثاني فتوجه بقواته من جديد نحو مناطق الحجاز لمنازلة قبيلة «حرب» في المنطقة البركانية التابعة لجبل غراب، ومنها عاد إلى منطقة

القصيم ليقضي فترة راحة طويلة قبل أن يعود أخيراً إلى الدرعية في شهر شباط من عام ١٨١٥ . وفي ذلك التاريخ أرسل أخاه «فيصل» على رأس قوة ليتولى قيادة «تربة» وليشرف على سير العمليات في تلك الجبهات، وسرعان ما انضم إليه «طامي بن شعيب» بتعزيزات قوية تقدر بعشرين ألف رجل، جاءت معظمها من جبال تهامة والحجاز. تحركت جموع القوات التي بلغ تعدادها الآن ثلاثين ألف رجل عن طريق مشارب «غزيل» في وادي تربة باتجاه «بسال» وهناك اشتبكت مع القوات المصرية وحاصرتها وانتهى الحصار بفوز السعوديين. لكن في صباح اليوم التالي وصلت تعزيزات إلى القوات المعادية – يفترض أن طوسون أرسلها إليهم – وهاجمت القوات السعودية وتمكنت من دحرها، علماً بأن قوات «فيصل» بقيت في مواقعها وانسحبت في نظام تام باتجاه «تربة» دون أن تطاردها القوات المصرية. قصد «فيصل» من خطة تراجع قواته إلى «تربة» أن يعيد ترتيب جيشه استعداداً لجولة جديدة ضد العدو.

تلاشت قوات «طامي» وحشود البدو التي كانت معه داخل الصحراء، وعندما علم «فيصل» بقدوم القوات المصرية قام على الفور بإخلاء «تربة» وتوجه بقواته جنوباً نحو «رنية» وهناك سرح حلفاءه من القبائل المحلية قبل عودته إلى «نجد».

أصبحت «تربة» الآن تحت سيطرة «محمد علي باشا» الذي تولى قيادة القوات مباشرة بعد معركة «بسال». زحف «محمد علي باشا» بقواته نحو «بيشة» و «طوالة» وقمع في طريقه كافة أشكال المقاومة. وأثناء تقدمه عمل على تنظيم شؤون الحكم في تلك المناطق. أطلق الأتراك يد الشريف

«راجح» وأرسلوه لاحتلال «رنية» ونهب ممتلكاتها بسبب دعمها ومساندتها للقوات السعودية.

استمر «محمد علي» في التقدم جنوباً ليحتل «خميس مشيط» وليحتل واحات «وادي شهران»، وقد أبدت قبائل «شهران» و «الربيضه» وباقي المناطق هناك استسلامها لـ «محمد علي»، إلا أن جماعة «الطامي» والعشائر التي كانت تقطن المناطق المرتفعة هناك قاومت القوات الغازية التي كانت تحاول شق طرقها في أعالي الجبال.

تم تعزيز مستوطنة «طلحة» التي تجثم في ممر «شعار» على الطريق بين «أبها» و «القنفذة»، وجهزت بمعدات ومقاتلين ووضعت تحت إمرة «حوان» بينما تراجع «طامي» بقواته إلى مرتفعات «بني مغيض» ليدير من هناك أعمال حرب العصابات. لم يواجه «محمد علي» سوى قليل من المتاعب في السيطرة على «طلحة»، وتمكن من تدمير استحكاماتها قبل أن ينزل بقواته باتجاه وادي «طيه» متقدماً نحو «محايل» و «القنفذة». هذا وغادر «طامي» المناطق الجبلية متوجهاً إلى معاقل تهامة في «المسلية»، ومن هناك غرره أصدقاؤه بالتوجه إلى «صبيا» عاصمة تهامة قاصدين خداعه، وهناك تم اعتقال «طامي» وتسليمه إلى «محمد علي» الذي أمر بترحيله إلى مصر وتم إعدامه هناك شنقاً.

وصلت إلى «محمد علي» في «القنفذة» أخبار المشكلات التي كانت تدور بين المماليك وحكومته، وعليه قررفي الحال العودة إلى مصر تاركاً أمر إدارة العمليات المستقبلية إلى «طوسون» الذي كان في ذلك الوقت في «المدينة» يحضر لشن حملة ضد «نجد».

كانت الأخبار التي نقلها إلى «طوسون» بعض العناصر المستاءة والساخطة في منطقة «الرس» و «الخبراء» مشجعة لـ «طوسون» وجعلته يصدر أوامره إلى القوات الموجودة في «الحناكية» بالتحرك إلى «القصيم». وعليه تمكنت القوات التركية من السيطرة على بلدتي «الرس» و «الخبراء» دون أية مقاومة، كما تمكنت من احتلال القلاع والمستوطنات الصغيرة في المناطق المجاورة لهما، علماً بأن القرى والمدن في وسط القصيم وفي الجبهات الشرقية من ذلك الإقليم، بقيت على ولائها للحركة الوهابية وفي مقارعة القوات المصرية التركية، إلى أن تمكن «عبد الله» من حشد قواته من كافة مناطق «نجد» وقدم لنجدة مناطق وسط وشرق «القصيم».

وفي منتصف شهر نيسان من عام ١٨١٥ غادر «عبد الله» الدرعية متوجهاً إلى «المذنب» المكان المتفق عليه للقاء القوات، وتحرك من هناك متوجهاً إلى «رويضة» بالقرب من «الرس». واكتفى المصريون هناك بإطلاق نيران المدفعية عن بعد، لكن «عبد الله» سار بقواته نحو جماعة «حرب» ورجال عشائر «مطير» التي كانت متجمعة حول آبار «بصيري» باتجاه الغرب، وفي طريقه إلى هناك وصلته أخبار مفادها أن «طوسون» كان قد وصل على رأس قوة كبيرة إلى «داث» في طريقه إلى «الرس»، وعلى الفور توجه «عبد الله» إلى هناك على أمل أن يفاجئ العدو عند موارد المياه، لكن «أحمد طوسون» الذي كان قد توقع من «عبد الله» أن يقوم بذلك التحرك، تابع مسيرة مباشرة إلى منطقة «الرس». أرسل «عبد الله» فرقة رجال «القصيم» لمقاومة أي تقدم محتمل لقوات العدو، وعاد هو بنفسه إلى خطته الأولى وهاجم تجمع القبائل في بصيري. وبعد أن وجه ضربة ناجحة ضدهم وصلته أخبار أن قوة

تركية أخرى كانت قد وصلت إلى قلعة وآبار «البعجة» القريبة منه، وكان عليه التحرك لملاقاتها. وتمكنت القوات السعودية بقيادة من النيل من تلك القوة التي بلغ تعدادها اثني عشر ألف رجلاً، واختبأ رجالها في البيوت إلا أنه داهمهم كما داهم الحامية التي كانت هناك وقتل كافة رجالها. عاد «عبد الله» بعد ذلك إلى قاعدته في المذنب وقام «طوسون» الذي كان مسيطراً على «الرس» و «الخبراء» باقتحام موقع متقدم في «الشبيبية» بالقرب من «عنيزة» واستولى عليه. وكان «طوسون» ينوي احتلال «عنيزة» عندما تحين الفرصة وتحويلها إلى مقر رئيسي لقواته، وعلى أي حال سبقه «عبد الله» في الوصول إليها وجعل منها قاعدة لحملاته ولغزواته المتكررة ضد القوات المصرية وحلفائها من البدو. كان الوضع العام للقوات المصرية وحلفائهم المتواجدين في منطقة محاطة بأعدائهم سيئاً، إضافة إلى أن جماعات من منطقة «الرس» سارعت في التفكير عن التسرع في استسلامها لـ «طوسون» وقامت بهجوم احتلت على إثره قلاع «الشنانة» لتستفيد منها قوات الأمير «عبد الله». سحب «عبد الله» القوات المتقدمة والموجودة في منطقة «الشبيبية» وسار بقواته خارج «عنيزة» باتجاه آبار «الحجناوي» وعسكر هناك لمدة شهرين قام خلالهما بممارسة الهجمات المتوالية على مواقع «طوسون».

هذا ولم يعرف السبب المباشر للتطور الذي حدث لاحقاً في الأحداث، إذ يعزوه بعض المؤرخين إلى وضع «طوسون» المضطرب في وسط الصحراء، والبعض الآخر يعزوه إلى الأحداث التي حصلت في «مصر» مؤخراً أو إلى صحته المتردية. فحدث أن أحد الضباط الأتراك كان يرافقه دليلان واحد من جماعة «حرب» والآخر من جماعة «مطير» وكان ذلك

الضابط في طريقه إلى «طوسون»، فاعترضت سبيله دورية من القوات السعودية واقتادته إلى معسكر «عبد الله»، وحيث أبلغ الضابط التركي «عبد الله» بأنه كان يحمل رسالة إلى «طوسون» من والده الذي يأمره في تلك الرسالة بالتوصل إلى صلح وسلام والعودة إلى مصر. أحسن «عبد الله» استضافة الضابط التركي وسمح له بالذهاب إلى «طوسون»، وسرعان ما توصل القائدان إلى اتفاق سلام يفضي أولاً إلى إنهاء الأعمال العدائية فيما بينهما، وثانياً إلى إنهاء التدخل التركي في شؤون نجد، وثالثاً حرية التجارة بين الصحراء العربية وجيرانها والتأكيد على سلامة وحرية رحلات الحج لكافة الجماعات المسلمة المعنية. وعليه غادرت القوات المصرية «الرس» متوجهة إلى «المدينة» في منتصف شهر تموز من عام ١٨١٥، ورافق «طوسون» مبعوثان على مستوى رفيع من الجانب السعودي وحملا معهما رسالة من «عبد الله» إلى «محمد علي» والتي موجبها أصبحت الهدنة سارية المفعول. وفي نهاية شهر أيلول عام ١٨١٧ توفي «طوسوون» في مصر بعد أن سجل فشلاً في حملته ضد الصحراء العربية، وقبل هذا التاريخ بشهر تقريباً كان الشريف «غالب بن مساعد» (الذي نفاه محمد علي من مكة قبل بضع سنوات) قد مات أيضاً في «سالونيكا».

يبدو أن «عبد الله» قد أعد حملته ضد «طوسون» بقوة ومهارة كبيرتين حافظ على العناصر الهشة التي كانت بين قواته وأبقاها تحت أنظاره، كما شجع إرادة الأهالي في مناطق «القصيم» ورفع معنوياتهم في مواجهة الاعتداء المصري على حقوقهم وممتلكاتهم، وجلى ذلك في تكفير أهالي «الرس» عن سوء تصرفهم. وحقيقة أن مبادرة «محمد علي» شخصياً في

إلغاء الغزو ضد مناطق «نجد» جاءت بمثابة انتصار معنوي للقوات السعودية. وبرزت نتائج هذا النصر المعنوي أيضاً في المقاومة الرفيعة المستوى التي أبدتها مناطق ومدن «نجد» والتي أشاد بها «إبراهيم باشا». شعر «عبد الله» بأنه يستحق فترة استراحة يقضيها في الدرعية، علماً بأنه كان على يقين من أن هناك حاجة ماسة لمواجهة بعض الجماعات سواء من البدو الرحل أو من الحضر، لأن عدم ولائهم المفضوح قد تجاوز الحد وأصبح من الصعب تجاوزه أو الصفح عنه. ومع حلول نهاية العام كان «عبد الله» قد انتهى من تجميع قواته في «القصيم» سبق وأن استدعاها من كل حدب وصوب من مملكته: وكان قد جمعها من «عُمان» و«وادي الدواسر» و «الأحساء» و«جبل شمر» وحتى من «الجوف» في أقصى الشمال، ناهيك عن الفرق التي جمعها من الدرعية ومن مناطق «القصيم» نفسها، وكانت منطقتا «الخبراء» و«البكيرية» أول المناطق التي استهدفها، فدمر الآبار فيها باعتبارها مصدراً من مصادر الضرر مستقبلاً، وبعد ذلك سار بقواته غرباً بحثاً عن تجمعات قبائل «حرب» و «مطير»، ووصل إلى آبار «الأعلام» بالقرب من «الحناكية» واستمر في تقدمه جنوباً نحو موارد مياه «حرة الكشب»، وبعدها رجع باتجاه الدرعية عن طريق «الدفينة». حاول في تلك المرحلة إخفاء الإعياء الذي أصاب قواته نظراً لأن القبائل كانت منتشرة في الصحراء تحاول تجنب الاحتكاك مع قواته. قام أهالي تلك المناطق بتدمير أو ردم العديد من الآبار التي يمكن لأي قوة غازية أن تستفيد منها. وتمكنت قوات «عبد الله» من أسر أمير «الرس» واثنين من كبار الشخصيات فيها، واقتادوهم إلى الدرعية كرهائن. أحدث هذا التصرف بعض الاستياء بين أهالي «القصيم»، فقامت بعض العناصر

المستاءة وغير الموالية بإرسال رسائل إلى «محمد علي باشا» الذي كان في ذلك الوقت مستعداً لاستئناف نشاطاته في الصحراء العربية.

وبعد وفاة «طوسون» وقع اختيار «محمد علي» على ابنه «إبراهيم» ليقود حملته العسكرية، لكن الرسل والهدايا التي أرسلها «عبد الله» إلى الوالي (والتي طلب فيها تجديد الهدنة أو التأكيد عليها) لم تلقى نفس الترحيب الذي لاقته في السابق، وعليه استمرت الترتيبات الخاصة بالحملة العسكرية ضد الصحراء العربية، ووصل «إبراهيم» بقواته الضخمة إلى «المدينة»، وكان ذلك إما في شهر تشرين الأول أو في شهر تشرين الثاني عام ١٨١٦. وأقام إبراهيم في «الحناكية» مركزاً دفاعياً متقدماً ليبدأ في طي الصحراء العربية متقدماً نحو جوهرتها الدرعية، وقد أسفرت الهجمات التي شنها على مواقع البدو عن إجبارهم على التحالف معه في مغامرته التي كان على وشك الخوض فيها، وكانت الجماعات الرئيسية (التي تمكن من حشدها لمساندة قواته) من قبائل «حرب» و «مطير»، علماً بأن بعض العناصر من العتيبية ومن «عنزة» (الدهاشمة) انضمت إليه أيضاً.

وبالتدريج توسع «إبراهيم» بغاراته شرقاً إلي أن وصل إلى مشارف القصيم عند مرتفعات «إبانات». بدأ «عبد الله» بإعداد ترتيباته لمجابهة خطر ذلك الغزو فأصدر أوامره إلى فرق «الوشم» و «سدير» بالانضمام إلى قوات «حجيلان بن حمد» زعيم منطقة القصيم التي كانت قد اتخذت مواقعها في منطقة «غميل» بين «بريدة و «الخبراء» ومضى على وجودها هناك أربعة أشهر وبقيت دون عمل إلى أن قدم «عبد الله» إلى «الرس» في شهر آذار من عام ١٨١٧ على رأس قوة كبيرة وهناك استدعى «حجيلان» وقواته، وتوجه

بجموع تلك القوات على طول وادي «الرمة» إلى أن وصل آبار «علم» على أمل أن يداهم حلفاء «إبراهيم باشا» من البدو في تلك المنطقة، لكنه وجد أن أولئك البدو كانوا قد انسحبوا إلى «الحناكية» وعليه عاد عبدالله» بقواته إلى «مكن»(*) و«النجخ»(**) ليراقب تطور الأوضاع. وهناك وصلت إليه أخبار مفادها أن قوة تركية بقيادة «علي عزان» ترافقها قوة من البدو كانت في طريقها إلى آبار سالموية» والتي تبعد مسير يومين جنوب شرق «الحناكية».

وعلى الفور سار «عبد الله» بقواته داهمهم بهجوم مفاجئ في صباح الأول من آيار (مايو) وطاردهم إلى أن وصل على مسافة تقع ضمن المدى المجدي لنيران المدفعية التركية، وهناك عسكر «عبد الله» في موقع مقابل لمعسكر العدو إلا أن مدافع العثمانيين أوقعت الكثير من الإصابات بين صفوفه وأدى الفشل في محاولته احتلال تلك الآبار إلى هروب قواته بشكل غير منظم. وهكذا سيطرت القوات المصرية على أرض المعركة وعلى آبار المياه. تمكن «عبد الله» مع فريق من فرسانه من الهروب أيضاً والعودة إلى «نجد» تاركاً هناك كل المعدات الثقيلة ومنها عاد إلى «عنيزة» عن طريق «الخبراء».

عزز «إبراهيم» ذلك النصر بأن تقدم بقواته من «الحناكية» باتجاه «المويه» جاراً معه كامل معداته، ومن هناك استمر في تقدمه نحو «القصيم» إذ وصل إلى مشارف «الرس» في التاسع من تموز ووجد أن «عبد الله» كان قد أرسل لهم تعزيزات لتحول دون تفكيرهم بالاستسلام للأتراك. قاوم الأهالي هناك بكل عزيمة وإصرار الحصار الذي فرضه «إبراهيم» عليهم، إلا أن كفة

(*) مكن من قرى الجائزة في إمارة منطقة مكة المكرمة.

(**) نجخ هي هجرة من هجر العونه بمنطقة الحسو في إمارة المدينة المنورة.

المعركة رجحت لصالح قوات «إبراهيم» التي لم تترك مدافعها وألغامها وآلية الحصار التي فرضها على الناس أية فرصه للراحة (لا في الليل ولا في النهار). كان السكان أثناء الليل يسدون الفحوات التي استطاعت قوات إبراهيم ومدافعه إحداثها في النهار، كما كان الأهالي المحاصرون يرسلون بفرق لتبطل الألغام التي زرعها المهاجمون، ويبدو أن المصريين استخدموا أنواعاً من القذائف كانت تنفجر إلى شظايا عندما تسقط داخل التحصينات التي أقامها الأهالي. ومع استمرار المعارك على مدى بضعة أيام، وبغياب أي أمل في انفراج الحصار، أرسل الأهالي رسائل إلى «عبد الله» الذي كان لا يزال في «عنيزة» لكنه عاجز عن التدخل بشكل مباشر، وناشدوه في التدخل بشكل سريع، أو كبديل عن ذلك ناشدوه أن يسمح لهم بالتفاوض مع العدو. في تلك الأثناء وصلت إلى القوات المهاجمة تعزيزات ومؤن ضخمة من مصر وأصبح المدافعون في وضع يائس. وبعد أربعة أشهر من الحصار أجبروا على الاستسلام، ووافق «إبراهيم» على استسلامهم وقدم لهم شروطاً سخية في الخامس والعشرين من شهر تشرين الأول من عام ١٨١٧، وسمح لهم بالخروج من معاقلهم مع كافة أسلحتهم ومعداتهم للالتحاق بقوات «عبد الله» في «عنيزة». بلغ تعداد القتلى بين صفوفهم سبعين رجلاً في حين ذكرت تقديرات المؤرخين بأن عدد القتلى بين صفوف القوات المصرية وصل إلى ٦٠٠ قتيل.

بعد أن أمضى «عبد الله» عيد الأضحى في عنيزة، وفي عشية سقوط «الرس» بدأ «عبد الله» مجدداً في إعداد الترتيبات اللازمة للدفاع عن المدينة وعن قلاعها ضد تقدم قوات «إبراهيم». وضع الحامية العسكرية التي كانت

تحت إمرة ابن عمه اللزم «محمد بن حسن بن مشاري بن سعود» في قلعة «صفا» الحيوية تحت إمرة «إبراهيم» أخو «محمد»، وزودها بالعتاد والسلاح والمؤن، ووضعها وتوجه بعد ذلك إلى «بريدة» وراقب تطور الأوضاع وأدرك أن أفضل عمل يمكن أن يقوم به هو إنهاك القوات المصرية بالحصار الطويل بدلاً من منازلتهم بأسلوب حرب العصابات المتبع تقليداً في حروب العرب. تحرك «إبراهيم باشا» على الفور بقواته نحو «عنيزة» التي استسلم أهلها في الحال، أما قلعة «صفا» فأبدت مقاومة باسلة، إلا أن قذيفة انفجرت في مستودع البارود داخل القلعة وأحدثت فتحات كبيرة في جدرانها. اضطر «محمد» حيال سقوط «عنيزة» وسقوط القوات المدافعة عن القلعة إلى طلب وقف إطلاق النار، وقبل «إبراهيم» الطلب وكان متساهلاً في شروط الاستسلام، وسُمح للحامية التي كانت تدافع عن القلعة بالرحيل مع ممتلكاتها وأسلحتها، وطلب من رجالها التفرق والذهاب كل إلى بيته.

سقطت كافة مناطق القصيم في أيدي الأتراك، وهرع «عبد الله» عائداً إلى الدرعية لينظم قواته لتصد هجوم الأتراك القادم على الدرعية. وفي طريقه إلى هناك توقف في «شقراء» ليشجع أهلها على مقاومة الغزاة بكل ما يملكون من قوة، وطلب أمير شقراء «أحمد بن يحيى بن غيهب» من الأهالي تجهيز الخنادق المحيطة بالمدينة والتي سبق أن استخدموها في صد قوات «طوسون» قبل سنتين، وكان العمل فيها قد توقف بسبب الهدنة التي توصلوا إليها في ذلك الوقت استجابة لذلك الموقف جلب الأهالي الكثير من المؤن إلى داخل المدينة تحسباً لحصار طويل، وتم جمع تلك المؤن

والمعدات الأخرى عن طريق جبايتها بالقوة من أثرياء المدينة، وقاموا أيضاً بقطع سعف أشجار النخيل لكي لا تشب فيها نيران القذائف.

وبعد أن انتهى «إبراهيم باشا» من الترتيبات الأمنية في «عنيزة» توجه إلى «بريدة» التي استسلم أميرها «حجيلان» والأهالي هناك دون مقاومة، وهكذا سقطت كافة مناطق القصيم في أيدي الأتراك بعد أسبوعين أو ثلاثة أسابيع من انهيار المقاومة الباسلة لأهالي «الرس»، وعليه كان الطريق مفتوحاً أمام «إبراهيم باشا» لمتابعة المسير جنوباً، وفعلاً توجه إلى «المذنب» وأخذ معه ابن حجيلان واثنين من وجهاء «بريدة» كرهائن، ومن هناك توجه إلى «أشيقر» و «الفرعة»، واستسلم أهالي هذه المناطق لدى وصول قوات «إبراهيم باشا» إلى بوابات قراهم. اتخذ «إبراهيم باشا» من «أشيقر» قاعدة لقواته، وفي الرابع والعشرين من شهر كانون الثاني عام ١٨١٨ توجه لاستطلاع «شقراء» والمناطق المحيطة بها وليرسم خطة مهاجمة المدينة التي كان يدرك أنها ستبدي مقاومة باسلة خلف تحصياتها القوية. وفي اليوم التالي بدأ هجومه من مواقع إلى الشمال والشرق من الواحة، ودارت معارك عنيفة بين الواحات وخارجها تكبد الأتراك فيها إصابات كثيرة، إلا أن التعزيزات وصلت لمساندتهم وتم إجبار المدافعين على التراجع إلى داخل المدينة وأصيب أميرهم بجراح بالغة.

نشر «إبراهيم باشا» فرق المدفعية لتدك جدران المدينة من موقع على هضبة في الجانب الشمالي، ووصل دوي قصف مدافعه ليس فقط إلى «سدير» و«المجمعة» القريبتين، بل وصل حتى سهول «العرمة». تراجع الأهالي خلف أسوار المدينة واقتربت مدافع «إبراهيم باشا» من أحياء المدينة وتم قطع

العديد من أشجار النخيل المحيطة بها، إلا أن السكان تصدوا للهجوم بإصرار وقاوموا العدو من خلف كل جدار أو بناء منهار، وبرزوا من مواقع حول خندق المدينة الذي أمن لهم قدراً لا بأس به من الحماية، واستمر الأهالي في رفض طلب «الباشا» منهم الاستسلام ولو كان ذلك وفق شروط مشرفة، إلا أن مجريات الأمور لم تكن لصالحهم، ففي العاشر من شهر نيسان استسلم الأهالي وسقطت «شقراء». ويعني سقوطها استسلام باقي مناطق «الوشم». فأرسل «إبراهيم باشا» قوة تحت إمرة «رشوان آغا» لإخضاع منطقة «سدير» و «المجمعة»، ولم يواجه «رشوان» سوى مقاومة بسيطة إن لم تكن معدومة. تفادت «حريملاء» و «المحمل» سطوة القوات التركية – المصرية وأبلغت «إبراهيم باشا» عن استسلامها له خلال فترة استراحته في «شقراء» التي دامت شهراً تقريباً.

خلال تلك الفترة كان «الباشا» مشغولاً بالإشراف على هدم ما تبقى من الأسوار، ومشغولاً في ردم الخنادق. تعاظمت الشكوك المتعلقة باحتمال عدم الولاء للباشا بعد رحيله. غذت تلك الشكوك في ذهن الباشا بعض الجماعات التي لها مصلحة في هذه الشائعات، فما كان من «إبراهيم باشا» إلا أن عامل الأمير الجريح وعدداً آخر من وجهاء معاملة جلفة وتمكن من إقناع الناس بالتهم التي ألصقت بهم. وعلى أى حال أخذ «إبراهيم باشا» معه عشرة من أهالي البلدة كرهائن وتوجه بهم أخيراً إلى «ضرما».

توقع «عبد الله» أن يقوم «إبراهيم باشا» بتلك الحركة، فما كان منه إلا أن أرسل إلى «ضرما» تعزيزات بقيادة ابن عمه «سعود بن عبد الله بن محمد بن سعود» وأرسل معه «ابن عفيصان» و «محمد العميري».

وفي العشرين من شهر شباط وعندما وصلت قوات «إبراهيم باشا» إلى المناطق المجاورة لضرما، أدرك أن المدينة كانت على علم مسبق بقدومه وكانت مسلحة لمقاومة هجومه، فأمر قواته بالتمركز في واحة «المزاحمية» التي تقع على مسافة عدة أميال إلى الشرق من «ضرما». صف مدافعه وجهز معدات الحصار ليدك أسوار المدينة وفق خططه العسكرية التي أصبحت الآن معروفة للجميع، وبعد أن أضعف من مقاومة المدينة دفع بقواته في محاولة للاستيلاء عليها، إلا أن المدافعين البواسل صدوهم وقتلوا منهم حوالي ٦٠٠ رجل. بعدها بدأوا في ترميم الفتحات في أسوارهم التي صمدت في وجه نيران المدافع، فوجه «إبراهيم باشا» مدفعيته إلى مكان آخر من التحصينات حيث كان «متعب بن عفيصان» ورجاله يتصدون للقصف ببسالة، إلا أنهم سمعوا منادياً ينادي أن الأتراك تمكنوا من التسلل خلف صفوفهم وأصبحت المدينة مكشوفة وتحت رحمتهم، فتوقف «متعب» ورجاله عن القتال وقام رجال «الباشا» بمطاردتهم داخل شوارع المدينة. زاد المطر الذي كان ينهمر بغزارة والبر الشديد من معاناة الجميع، واستمرت المعارك في الشوارع إلى ما بعد الشمس. في تلك الأثناء تمكن «محمد العميري» مع فرقة بسيطة من «ثادق» من اختراق صفوف العدو والهرب، بعدها قام المصريون بنهب المدينة وذبح كل شخص يشاهدونه في الشارع.

لاذ «سعود بن عبد الله» ومعه حوالي مائة رجل إلى أحد القلاع في المدينة، لكنهم استسلموا في وقت لاحق وفق شروط مشرفة سمح لهم «إبراهيم باشا» بموجبها بالمغادرة إلى الدرعية بسلام.

هرب معظم أهالي المدينة إلى الصحراء وبدأ «إبراهيم باشا» بجمع غنائم الحرب، وبالمناسبة تجدر الإشارة إلى أنه جمع أيضاً النساء والأطفال (الذين

بلغ عددهم ٣٠٠٠) وأرسل معهم فرقة لتؤمن وصولهم إلى الدرعية دون أن يصابوا بأي أذى أو أن يتحرش بهم أحد.

وهكذا وبعد ثلاثة أو أربعة أيام فقط من بدء هجوم قوات «إبراهيم باشا» عليها سقطت «ضرما» المعروفة بأنها من أقوى مدن نجد بعد «الدرعية». يقال إن عدد القتلى من بين رجالها البالغ تعدادهم ١٢٠٠ رجل وصل إلى ٨٠٠ رجل، كما مات عدد مشابه من التعزيزات التي وصلت لنجدتهم.

وبعد أن نهبت قوات «إبراهيم باشا» المدينة انسحبت استعداداً للمرحلة الأخيرة من الحملة التي كلفه بها والده. فسار «إبراهيم باشا» بقواته في ممر «الحيسية» المحاذي لوادي «حنيفة» ومر «بالعيينة» و «الجبيلة» وأخيراً عسكر في واحات «الملقى» التي تبعد عن الدرعية حوالي مسير ساعة على ظهر الجمال. ومن هناك قام بنفسه بجولة استطلاع ووصل إلى منطقة «العلب» عند مدخل الواحة. رافقه في جولة الاستطلاع تلك عدد من ضباطه ومعهم المدافع. سارت تلك القوة في الوادي، في حين كانت فرقة الخيالة تسير على طول المرتفعات في أعلى ضفة الوادي. وبعد مناوشات عنيفة مع المواقع المتقدمة لقوات «عبد الله» عاد «إبراهيم باشا» إلى «الملقى» ليكمل ترتيباته للمعركة التي بدأت في اليوم التالي المصادف للحادي عشر من شهر آذار عام ١٨١٨.

في الوقت الذي كانت فيه المناطق والمدن والقرى في «نجد» تسقط الواحدة تلو الأخرى أمام زحف الغزاة، كانت هناك عناصر ترفض وباستمرار فكرة العيش بسلام تحت الحكم الأجنبي الكافر. تجمعت هذه العناصر واحتشدت

في المواقع الدفاعية بالمدينة وزودها «عبد الله» بكل ما تحتاجه لمواجهة متطلبات الوضع.

تقع الدرعية في الوادي العميق الذي يطلق عليه اسم «وادي حنيفة» والذي يبلغ متوسط عرضه حوالي ٥٠٠ ياردة ويمتد على طول أربعة أميال من الشمال إلى الجنوب، وتقع علي جانبيه واحات النخيل الكثيفة وتطل على ضفتيه صخور انكسارية بطول مائة قدم، ويقع في حنايا هذا الوادي عدد من القرى والبلدان الصغيرة، وفي أعالي هذه القرى وعلى حافة الصخور في الضفة اليمنى من الوادي تجثم قلعة «طريف». وكانت هناك قصول عائلة «سعود» والمنازل الفخمة الكبيرة التي كان يعيش فيها أتباعهم، إضافة إلى عدد من المساجد وأماكن الترفيه المتعارف عليها في المدن العربية. وكان هناك أيضاً أخدود عميق يفصل القلعة عن الضفة اليمنى، أما في الطرف الآخر فكانت تنتشر الأكواخ المتواضعة والبيوت التي كان يعيش فيها الحرفيون وطبقات اجتماعية أخرى.

وخارج هذه الضاحية كان هناك سور تعلوه الأبراج والتحصينات الصغيرة وكان ذلك السور يمتد من أسفل الوادي باتجاه الشرق ليطوق المساحة الكبرى منه، وكان هناك سور مشابه إلا أنه أكبر من السور بكثير ويمتد بشكل مقوس قليلاً على طول الصخور المطلة على الوادي من الشرقية، ولم يكن بالإمكان الوصول إلى قلب الواحة إلا عبر مجرى الوادي من الشمال والجنوب. وكانت آثار أقدام الجمال من أعلى الصخور

حتى بطن الواحة تظهر بين الحين والآخر، لكن من أبرز طرق الجمال هذه كان خط السير الممتد من تلك الواحة باتجاه الرياض.

تلك هي المنطقة التي ستكون مسرح أحداث المواجهة بين العثمانيين والدولة السعودية الأولى. ففي الحادي عشر من شهر آذار تحرك «إبراهيم باشا» بكامل قواته في أسفل الوادي وكانت فرق الخيالة التابعة له منتشرة على كلا الجانبين، وتقدم في مسيرته هذه ليتخذ من منطقة «العلب» مقراً رئيسياً لقواته. وتصدت لقوات «الباشا» في الوادي القوة الرئيسية التي تضم فرسان الدرعية ومقاتلين من مناطق أخرى من «نجد»، وكان جميعها تحت إمرة أخوه «عبد الله» الثلاثة وهم: فيصل، وإبراهيم، وفهد، ولم يكن لدى القوات السعودية سوى ثلاثة مدافع يجابهون بها مدفعية العدو القوية.

وكان على يمينهم باتجاه الشمال الشرقي قوات أخرى من الدرعية تحت إمرة أخوين آخرين هما: سعد، وتركي، وكانت تلك القوة تحمي مدخل «شعيب المغيصبة»، وبالقرب منهم كانت فرقة «منفوحة» بقيادة زعيمها «عبدالله بن مزروع».

وبين خط الدفاع هذا وقوات العدو شكل «تركي بن عبد الله الهزاني» قوة متقدمة مؤلفة من رجال «الحريق» ومن جماعات أخرى، وكانت مهمتها الدفاع عن بوابة «سمحان» في الطريق الشمالي من القلعة.

اتخذ «عبد الله» موقعه داخل أسوار القلعة ومعه بعض المدافع الثقيلة، وكان «فهد بن عبد الله بن عبد العزيز» (ابن عم عبد الله اللزم) يرابط للدفاع عن قرية «قري عمران» الواقعة بجوار واحة «الرفيعة»، وكانت معه قوة من

الدرعية وسدير ومعهم بعض المدافع أيضاً.

شكلت كافة هذه المواقع الخط الدفاعي الأول المجابة لتشكيلات العدو المشابهة للتشكيلات السعودية، وكان خلف هذا الخط مباشرة في الجانب الأيمن من الواحة مواقع واستحكامات تمركز فيها عدد من الرجال الكبار في السن والأهالي الغير مؤهلين لتحمل وطأة المعركة لكنهم كانوا قادرين على الدفاع عن مواقعهم عند الضرورة. وتحسباً من أن يقوم العدو بحركة التفافية من المناطق الصحراوية في أسفل الواحة، قام «سعود بن عبد الله بن عبدالعزيز» وهو أيضاً ابن عم «عبد الله» اللزم بالتمركز في منطقة «قرين» الواقعة على رابية صغيرة.

رابط «عبد الله بن عبد العزيز» على رأس قوة من عناصر مختلطة في قلعة «سمحة» الواقعة إما على الضفة اليمنى أو الغربية من الوادي ومباشرة أمام خط الدفاع، وكان إلى جانبه أخ آخر له يدعى «عمير». وكان هذا الأخير يغطي مدخل شعيب الحريقة. وامتداداً لنفس الخط الدفاعي كان أخ ثالث لـ «عبد الله» ويدعى «حسن» يرابط بقواته التي انتشرت لتتصل بقوات «تركي» و «زيد» ابنا «عبد الله بن محمد» اللذان كان يقودان فرقة أخرى من الدرعية، وكان «فرج الحربي» وهو عبد سابق من عبيد «سعود الكبير» على رأس فرقة من العبيد مهمتها حماية قوات «تركي» و «زيد». أما في أعالي الشعيب فكان «فهد بن تركي» المشار إليه أعلاه وابن عمه «محمد بن حسن بن مشاري» اللذان سبق أن أشرنا إليهما كقائدين لقلعة «الصفا» في عنيزة. وخلف هذه المواقف وعلى الضفة العربية أيضاً رابط «مشاري» (أخو عبدالله» في «مصلى العيد» الواقع في منطقة الجرف خلف ضاحية المدينة التي سبق أن

أشرنا إليها. وفي المرتبة الثانية جاءت ضفاف «شعيب الصفا» التي رابط فيها «سعود بن عبد الله بن محمد» لمنع أية محاولة هجوم يقوم بها العدو من الخلف، وكما سبق أن أشرنا آنفاً كان هذا الأمير أيضاً يغطي مؤخرة مواقع الضفة اليسرى من الشعيب.

وفور وصوله إلى منطقة «سد العلب» بادر «إبراهيم باشا» بالهجوم على الخط الأمامي للقوات السعودية، واندلعت المعارك بضراوة دون توقف على مدى عشرة أيام دون تحقيق مكاسب لأي طرف علماً بأن اشتباكين حدثا بالسلاح الأبيض عند مدخلي شعيب «المغيصبة» وشعيب «الحريقة» على ضفتي الوادي. بادر الوهابيون في كلا هذين الاشتباكين بالقتال والهجوم. وإثر هذه الاشتباكات قرر «إبراهيم باشا» إيقاف ذلك القتال والتوجه بمهاجمة المواقع الدفاعية للقوات السعودية في وادي «غبيرة» شمالاً. وفعلاً بدأ بالهجوم عند الفجر ودفع بالعديد من التعزيزات ليشغل المدافعون بها. وفي تلك الأثناء أمر فرقة الخيالة (التي كان قد خبأها في الوديان أو الوهاد طيلة الليلة السابقة) بمهاجمة القوات السعودية من الخلف. فاجأ ذلك الهجوم القوات السعودية وجعلها تتقهقر بشكل غير منظم متجهة إلى أسفل الوادي، الأمر الذي أسفر عن موت العديد منهم بمن فيهم أول قتلى من أسرة«آل سعود» الحاكمة، وهم: فهد بن تركي ومحمد بن حسن بن مشاري إضافة إلى« «حسين» زعيم قبيلة «الهزاني». تجمع الذين نجوا من الموت وحاولوا الوصول إلى القلعة التي فشل الأتراك في التأثير عليها، وأسفر الاكتئاب والغم الذي خلفته كارثة الدرعية هذه عن انشقاق بعض العناصر ذوي الحماسة الفاترة عن الدعوة السلفية وحاولوا التملق للباشا وكسب رضاه عن طريق تزويده ببعض المعلومات عن الوضع في الدرعية.

وبعد فترة وجيزة من انتصاره في موقعه «غبيرة» أرسل «إبراهيم باشا» فرقة الخيالة ومعها بعض المشاة التي سحبها من المواقع المحصنة بالخنادق في الوادي إلى «علي عزان» قائد القوات التركية على الضفة اليمنى من الوادي، وأمره بمهاجمة السعوديين في قلعة «سمحة» كما أمر قواته في الضفة الغربية بتصعيد الهجمات العنيفة ضد القوات السعودية المواجهة لهم لمنع سحب أي مجموعة أو فرقة مشاركة في إسناد الهدف الرئيسي من الهجوم، وفتح «إبراهيم باشا» نيران مدافعه على القلعة والمناطق المجاورة لها في الوادي إلى أن حول معظم التحصينات هناك إلى أنقاض. وعليه وجد «عبد الله بن عبدالعزيز» نفسه مضطراً للانسحاب عن ذلك الموقع والتراجع إلى الخط الخلفي المعزز بالخنادق. في تلك الأثناء شن «علي عزان» هجوماً على القلعة التي كان «عمر» (أخو عبد الله) مستحكماً فيها يصد أي هجوم عليها بالرغم من القصف العنيف الذي تعرض له. لكن في النهاية تمكنت القوات التركية التي هاجمته من الخلف والتي سبق أن احتلت قلعة «سمحة» من هزيمته.

تشتت مقاتلو «عمر» وهربوا إلى جنوب الوادي وهي المنطقة التي كان «إبراهيم باشا» يشن هجوماً رئيسياً فيها ضد المواقع الرئيسية لـ «فيصل بن سعود» استمر «فيصل» في مقاومة الهجوم بضراوة إلى أن أمر «علي عزان فرقة الفرسان والمشاة التي كانت تحت تصرفه بالمسير عبر شعيبي «حريقة» و«غبيرة» باتجاه الوادي، وهناك اتخذت من واحات النخيل هناك معسكراً لها ومكثت فيه إلى أن تخلى «عمر بن سعود» عن موقعه. وبعدها تحركت هذه القوة إلى خلف مواقع «فيصل» وتمكنت إثر قتال شرس من دحر قواته التي تركت خلفها معظم أسلحتها ومدافعها، كما أن القوات السعودية التي كانت ترابط في المواقع على كلتا ضفتي الوادي انهارت وهربت مذعورة.

لم يتوقف تقهقر القوات السعودية حتى نجح «فيصل» وأخوه «سعد» في تجميع الرجال في واحة «السلماني» والتصدي للقوات التركية التي كانت تطاردهم وردوها على أعقابها وأوقعوا فيها الكثير من الخسائر. لم تقم القوات السعودية بأية محاولة لاستعادة مواقعها بل تمركزت في المواقع التي توقفت فيها لإقامة خط دفاعي عن طريق ربط مختلف بخنادق وحواجز عبر امتداد عرض الوادي في تلك المنطقة.

عزز أبناء «عبد الله» الثلاثة فيصل وتركي وفهد أمكنتهم في هذا الجزء من الوادي، ووقف إلى جانبهم عمهم «عبد الله بن عبد العزيز» وعلى يسارهم تمركزت قوات أخيهم «إبراهيم» لتغطي الضفة اليمنى من الوادي. وفي صحن القلعة التي تقع خلف موقع «إبراهيم» رابط «سعد بن عبد الله» بقوات ضخمة ومدفعية قوية تطل على مساحة واسعة من الوادي وتشرف أيضاً على المعركة. ورابط في أعلى الوادي وعلى ضفاف شعيب غبيرة «تركي بن عبد الله بن محمد بن سعود» وابنه «فيصل». الجدير بالذكر هنا أن ذلك كان أول ظهور لـ «فيصل» على مسرح الأحداث وقدر له أن يلعب على ذلك المسرح دوراً بارزاً دام لفترة تزيد على ثلاثين عاماً.

سيطرت قوات «عمر» و «حسن» (أخوي عبد الله) مع فرقة حربية بقيادة المحارب «فرج الحربي» على جزء من منطقة «شعيب بليدة». ورابطت بين هذا الخط الدفاعي وبين «شعيب ختلة» قوة أخرى بقيادة أخ لـ «عبد الله» يدعى «عبد الرحمن». وفي منطقة مصلى العيد رابط «مشاري بن سعود» الأخ الأكبر لـ «عبد الله». أعدت هذه المواقع لتكون كل واحد منها مقابلة لموقع من مواقع القوات التركية. استمر توارد المحاربين وحشدهم فيها ليلاً

نهاراً دون توقف. أما بالنسبة للمواقع في أسفل الوادي (والتي سبق أن أشرنا إليها)، فتم تعزيزها بشكل طفيف للاستفادة منها وقت الحاجة، ولم تكن معنية بالتطورات الرئيسية في المعركة. وأما المنطقة الواقعة في «سلماني» وعلى الضفة اليسرى من الوادي فقد أوكل الدفاع عنها لـ «عبد الله ابن مزروع» من «منفوحة» ولـ «عبد الله بن إبراهيم بن حسن المشاري». وحقيقة الأمر أن قوات «مشاري» كانت ترابط في مكان مرتفع من «النضيرة» وفي قمة الرابية أو الهضبة هناك كانت تجثم قلعة صغيرة مبنية من الحجارة وداخلها حامية بقيادة «سديد اللوح» من منطقة «المحمل» تشكل إحدى مراكز الدفاع الرئيسية، وبين هذه النقطة والخط الممتد حتى شعيب «القليقل» رابطت قوات «سعد بن سعود» (أخو عبد الله أيضاً)، وسيطر على منطقة الشعيب نفسه الأخوان الدغيثر (إبراهيم وعلي)، ورابط «عبد الله» بنفسه ومعه قادة المشايخ بقواتهم عند بوابتي «سمحان» و «الظهرة»، وجلسوا في خيامهم بالقرب من بطارية المدافع الثقيلة.

نقل «إبراهيم باشا» مقر القيادة إلى وهاد «قري قصير» في الجانب الشمالي القريب من البلدة، في حين أخذت قوات «علي عزان» مواقعها على طول الضفة اليمنى من الوادي المواجهة للقلعة من جهة الغرب، واندلعت المعركة بنفس قوة المعركة السابقة واستمر الصدام في الليل والنهار وتخللتها اشتباكات بالسلاح الأبيض وقعت بين الحين والآخر لتنوع من طراز القصف المدفعي المتواصل. وبشكل عام يمكن القول أن المدافعين تفوقوا في الاشتباكات المتلاحمة، لكل القوات التركية تفوقت بكثرة العدد وكان بإمكانها سد الثغرات التي نجمت عن الإصابات البالغة التي تعرضت

لها قواتها. أضف إلى ذلك أن القوات التركية كانت تتلقى وباستمرار تعزيزات ومؤن تصلها من منطقة «المدينة». في حين عانت القوات السعودية المدافعة من تناقص في عد الرجال وتناقص في العتاد.

تصاعدت وتيرة المعارك في عدد من مراكز الدفاع الحيوية مثل واحة «السلماني» وأطلال قلعة «سمحة» وأماكن أخرى في «شعيب بليدة» على الضفة اليمنى من الوادي، وفي «شعيب قليقل» على الجانب الأيسر منه.

طوقت فرقة الخيالة العثمانية المدينة بمهاجمة قرية «عرقة» التي تقع على مسافة بضعة أميال جنوب الدرعية، وتمكنت من الاستيلاء على البلدة وقامت بتدميرها وهرب من كتبت لهم النجاة من أهلها عبر الوادي إلى العاصمة. تمكن «عبد الله» من استعادة القرية في موسم جمع ثمار التمر ليزود مخازنه منه. رد «الباشا» على ذلك بهجوم على حامية السعوديين بمساعدة من أمير الرياض «ناصر العائذي» وعناصر من «منفوحة» ومن قرى أخرى من «نجد» كانت قد تحالفت مع العدو التركي.

وفي النهاية استسلمت «عرقة» وتراجعت الحامية السعودية التي كانت تدافع عنها إلى الدرعية، لكن خلال هذه المعارك تكبدت قوات «إبراهيم باشا» كارثة فادحة تجلت في أن أحد مستودعات الذخيرة انفجر ودمر كميات كبيرة من المعدات الحربية كما تسبب في وفاة العديد من الجنود الأتراك في المناطق المجاورة للانفجار، هذا إضافة إلى الذعر الشديد الذي أصاب الناس بسبب دوي الانفجار. استغل السعوديون هذا الظرف وهجموا على القوات التركية لكن بدون جدوى. وفي محاولة منه للتعويض عن خسارته، أرسل الباشا فرقاً في كافة أرجاء البلاد وأمرها

بمصادرة وجمع كل الذخائر وكل الأموال التي تقع عليها أيديها لخدمة أغراضه العسكرية. في تلك الأثناء نظم الأتراك في العراق وفي أماكن أخرى قوافل لتواصل إمداد الحملات التركية بالمؤن والمعدات. وهكذا بدأت القوة التركية تزداد يوماً بعد يوم وبدأت تتكرر حالات الفرار من صفوف المدافعين عن الدرعية إلى أن قام «غصاب» زعيم قبيلة عتيبة بالالتحاق بالقوات التركية وقدم للباشا معلومات هامة ونصائح تتعلق بطبيعة الأوامر والروتين الذي كانت تنتهجه القوات السعودية المدافعة. والجدير بالذكر هنا أن «غصاب» كان يشغل منصب قائد قوات الخيالة الدفاعية، وكان يعتمد عليه كواحد من أقوى أنصار أسرة «آل سعود» الحاكمة.

وفي شهر نيسان عام ١٨١٨ منيت الدولة السعودية بخسارة فادحة تجلت في مصرع «فيصل» (أخو عبد الله) الذي قتل إما برصاصة طائشة أو برصاصة قناص من مسافة بعيدة أثناء قيامه بجولة تفقد لمقر قيادته. خلفه في منصبه أخوه «تركي» واستمرت جولات المعارك المنهكة دون توقف: إذ إنها كانت تخمد في منطقة لتشتعل من جديد في منطقة أخرى. فبعد المعارك التي دارت في «شعيب ختلة» و «قري عمران» نشب اشتباك عنيف حول واحة «الرفيعة» حيث شن الأخوان «دغيثر» وأتباعهم هجوماً على مواقع مدافع العدو، إلا أن القوات التركية تمكنت من صدهم وأنزلت بهم العديد من القتلى من بينهم شقيقين من عائلة «الدغيثر». دارت معركة أخرى في الموقع نفسه كنتيجة للهجوم الذي شنته قوة تركية كبيرة على تحصينات السعوديين. تمكن «فهد بن عبد الله» في تلك المعركة من دحر القوة المصرية التي كانت مع القوة التركية المهاجمة وطاردها، إلا أنه قتل عندما تصدت له القوات التركية

أثناء تلك المطاردة. واصل السعوديون في الدرعية هجماتهم على القوات التركية واندلعت المعركة من فجر ذلك النهار حتى الظهيرة دون تحقيق أية مكاسب لأي فريق، وبدأت القوات الوهابية المدافعة تشعر بلسعات الجوع واحتمال حدوث المجاعة، إذ نفد مخزون التموين لديهم ووصل سعر القمح إلى أرقام لا يمكن تصورها، وحمل الغلاء العديد من الناس إلى هجر الدرعية، فبدا جلياً أن الوقت كان يمضي بسرعة ولم يكن لصالح «عبد الله» وجماعته.

وفي الخامس من شهر تشرين الأول قامت قوات «الباشا» ومن كافة الاتجاهات بغارة على المواقع الدفاعية للدرعية، وأرسل «الباشا» ولأول مرة قوة مجهزة ببعض المدافع إلى نهاية الطرف الجنوبي من الواحة لترويع المراكز الدفاعية الضعيفة هناك، كما أمر قوة كبيرة بقيادة «علي عزان» بأن ترابط على الضفة اليمنى من الوادي مشكلة بذلك تهديداً للقلعة من جهة الغرب. أمر «الباشا» بالبدء في هجوم قوي على مواقع الضفة اليسرى ليجر أكبر عدد من المدافعين في ذلك الاتجاه، و كان «علي عزان» في تلك الأثناء قد نشر قواته عند الفجر للهجوم على الموقع الذي يرابط فيه «عبدالرحمن» (أخو عبد الله) والذي يقع في أعلى واحة «المشيرفة».

وجد «علي عزان» أن القوات السعودية كانت قد هجرت ذلك الموقع، وعليه دخل بقواته إلى الواحة وشرع في إحداث فتحات في سورها، وأمر قواته بالانتظار ليحين دورها في الانضمام إلى القوات التركية في الهجوم الذي احتدم على كلا ضفتي الوادي. أبدى المدافعون مقاومة باسلة في صد الوحدات التركية المواجهة لمواقعهم، لدرجة أنهم انشغلوا عن مراقبة ما كان

يجري خلفهم. وأخيراً باغتتهم قوات «المشيرفة» بهجوم من الخلف واضطروا للهروب من خنادقهم فطاردتهم القوات التركية (العثمانية) واختبأوا في منازلهم المنتشرة حول الوادي، وأوصدوا أبواب بيوتهم وأخذوا مواقعهم على الجدران للتصدي للقوات التركية التي كانت تطاردهم. هذا واختبأ «سعد بن عبد الله» ومعه عدد من وجهاء الدرعية في قلعة جدة في «الطريف»، فما كان من «إبراهيم باشا» إلا أن وجه نيران مدافعه عليها. كان «عبد الله» ومرافقوه إلى تلك اللحظة لا يزالون صامدين في مواقعهم بين البوابتين وكان أهالي القرى يقاومون القوات التركية بشجاعة وسط وضع فلتت فيه زمام الأمور وأصبح ميئوساً منه.

أدرك «عبد الله» الذي كان أخوه قد قتل في مواجهة سابقة أن كل شيء قد ضاع، ولذلك تراجع إلى مقر إقامته في «الطريف» تاركاً كل مدافعه ومعداته العسكرية عنيمة سهلة للأتراك عند بوابتي القلعة. ذهب وفد من السعوديين بقيادة كل من «عبد الله بن عبد العزيز» (عم عبد الله) والشيخ علي (أحد أبناء محمد بن عبد الوهاب الكبير) وناشدوا «إبراهيم باشا» السلام.

وافق «إبراهيم باشا» على وقف القتال في قرى الوادي ولم يوافق على إيقافه على منطقة القلعة أو الحصن. وقال بأنه لن يوقف القتال في القلعة ما لم يستسلم «عبد الله» دون أية شروط. وفي التاسع من شهر أيلول عام ١٨١٨ توصلت قرى الوادي في تلك الواحة إلى هدنة منفصلة ودارت حول الحصن معارك ضارية، وقصف الأتراك بيت ضيافة «آل سعود» في بوابة «سمحان» التي اتخذها «عبد الله» مقراً لقيادة قواته منذ اليوم الأول للمعارك. وإثر ذلك القصف أخرج «عبد الله» مدافعه من القصر ووضعها

في المسجد لشن آخر هجوم ساندته فيه أعداد كبيرة من الأهالي المخلصين. صمد «عبد الله» ورجاله رغم كل الصعاب الجامحة لمدة يومين في قتال يائس، وأخيراً قرر أن يستسلم في الحادي عشر من أيلول. دام نضال «عبدالله» ضد الأتراك لمدة ستة أشهر واجه خلالها كل قوة الصدر الأعظم ومصادر ثرواته وقوته، إضافة إلى قوته وقوات مندوبه السامي في مصر. وأخيراً تم التوصل إلى سلام مشروط بتوجه «عبد الله» شخصياً إلى القسطنطينية ليمثل أمام الصدر الأعظم ويسمع بنفسه حكمه عليه. وبعد يومين غادر «عبد الله» حصنه تحت حراسة قوة كبيرة بقيادة «رشوان آغا» و«علي دويدار» واقتادوه إلى القسطنطينية عن طريق «مصر» وهناك أصدر الصدر الأعظم أمره بإعدامه.

كلفت الحملة التي شنها «إبراهيم باشا» على الدولة السعودية اثني عشر ألف قتيل من القوات التركية، ويقدر عدد الذين قتلوا في المعارك ضد الدرعية بحوالي عشرة آلاف تركي، لكن كان ذلك العدد من القتلى بمثابة ثمن بخس لمثل ذلك النصر، الذي تحقق للإمبراطورية العثمانية. بدت السلطة السعودية من حيث الجوهر وكأنها مبعثرة إلى الأبد لولا أن الإدارة العسكرية التي ظهرت لاحقاً على الساحة بددت كافة المكاسب التي حققتها حملة «إبراهيم باشا». ولدت تلك الإدارة العسكرية التركية في المناطق العربية التي هيمنت عليها روح السخط وعدم الرضا عند جماهير أعربت عن ولائها لأمراء «آل سعود» الذين نجو من تلك المعارك. كان العديد من هؤلاء الأمراء قد تمكنوا من مغادرة الدرعية قبل وقوع الكارثة الكبرى. أخذ الأتراك عدداً آخر منهم كأسرى حرب إلى «مصر»، ومن هناك تمكن عدداً

منهم في الوقت المناسب من العودة إلى الصحراء العربية ليقوموا بواجبهم في خدمة بلدهم. وكان من بين الذين هربوا قبل وقوع الكارثة «سعود بن عبد الله بن محمد» (ابن عم عبد الله اللزم الذي كان قد نحي عن السلطة). وحيال ذلك الهروب أمر «إبراهيم باشا» فرقة الخيالة بمطاردته وتمكنت منه وقتلته، إلا أن أخاه «تركي» تمكن من الفرار وقدر له أن يلعب دوراً بارزاً في استعادة هيبة وسمعة «آل سعود» خلال فترة السنوات العشر التي تميزت بالفوضى إبان الاحتلال التركي (العثماني). رافق «تركي» في غياهب الصحراء أخوه «زيد» والذي كان ابنه المدعو «فيصل بن زيد» من بين أعضاء أسرة «آل سعود» الذين أمر «إبراهيم باشا» بترحيلهم إلى مصر. هذا ويقدر العدد الإجمالي للقتلى بين المدافعين السعوديين بحوالي ألف وثلاثمائة قتيل بما فيهم ثلاثة من أشقاء «عبد الله» وثمانية أفراد من عائلة «آل سعود». وبالمناسبة نشير هنا إلى أنه لا يقل عن عشرة من أشقاء «عبد الله» إضافة إلى واحد من أبنائه الثلاثة كانوا قد شاركوا في الدفاع عن العاصمة السعودية خلال فترة الحصار التي دامت لمدة ستة أشهر. وكان نصيب أسرة «آل معمر» من القتلى – وهي أسرة أمراء «العيينة» سابقاً – خمسة عشر قتيلاً سجلت أسماؤهم في سجل الشرف. وقتل من عائلة «الدغيثر» ستة رجل، وسقط من كل فرقة جاءت من تلك النواحي لتشارك في المعارك عدد كبير من الرجال الذين أضيفت أسماؤهم إلى سجل الشهداء.

وفي الواقع انهارت الدولة السعودية وهي تقاتل حتى آخر رجل، لكن كان مقدراً لها أن تنهض من بين أشلاء الاضطرابات التي جاءت كنتيجة لزوالها المؤقت.

وحسب ما هو مدون في السجلات التاريخية يمكن القول إن «إبراهيم باشا» عامل أعضاء أسرة «آل سعود» بالحفاوة اللائق بهم وبمكانتهم الاجتماعية، لكنه لم يعامل العديد من أنصار عائلة «آل سعود» بنفس الحفاوة والتكريم، وعلى وجه الخصوص أولئك الذين كانوا ينتمون إلى جماعة المشايخ (المطاوعة)، فأعدم بعضهم رمياً بالرصاص، في حين ربط بعضهم الآخر عند فوهات المدافع التي مزقت أجسادهم إلى أشلاء. هذا كما أقدم جنود «إبراهيم باشا» على ضرب وتعذيب قاضي المدينة «أحمد الحنبلي» الذي كان في ذلك الوقت موجوداً في الدرعية، وقلعوا كل أسنانه من فمه، وألحقوا الخزي بـ «سليمان بن عبد الله» (حفيد محمد بن عبدالوهاب) إذ أجبروه على سماع أنغام القيتارة قبل جره إلى أحد المقابر وقتله هناك رمياً بالرصاص. لكن تمكن حفيد آخر من أحفاد «محمد بن عبدالوهاب» ويدعى «علي بن حسين» من الهرب إلى «قطر» ومن ثم إلى «عُمان» خشية أن يتعرض لحدث مماثل لذلك الحدث، وبعد بضع سنوات عاد علي من هناك ليخدم تحت إمرة الأمير «تركي».

دام عهد الإرهاب الذي مارسه «إبراهيم باشا» لمدة تسعة أشهر بدءًا من سقوط الدرعية التي أقدم على تدميرها كليا بناءً على أوامر صدرت إليه مباشرة من «محمد علي باشا» في شهر حزيران عام ١٩١٩. وهكذا اختتم «إبراهيم باشا» بتدميره الدرعية النصر الذي حققه عن جدارة بفضل عناده وقدراته المنظمة وتكتيكه العسكري البارع وحنكته السياسية.